

فراغ المكان

نصوص وقصص قصيرة

معيض عبدالله

الانتشار العربي

معيض عبدالله

فراغ المكان

نصوص وقصص قصيرة




فراغ المكان

نصوص وقصص قصيرة

معيض عبدالله

لوحة الغلاف: للفنان عوضة حمدان



النادي الأدبي في منطقة الباحة
المملكة العربية السعودية
www.adbialbaha.com



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-604-3

الطبعة الأولى 2014

الفهرس

إهداء..

أخي القارىء:

بين يديك أنثر وريقاتي...

ولك أهدي كلماتي.

بداية

كان صرير رياح الشتاء وهبوب الأعاصير ورذاذ المطر المتسلل في سواد الليل يرهب القلوب، إلا أنها بداية البشارة بحلول الخير ومواسم الحصاد.

تُفتّح الأبواب فتفوح من خشبها رائحة مطر المساء فتشرق الوجوه فرحاً وكأنما خلقت الدنيا لها.

في تلك الأيام الخوالي دوّنت ذاكرتي كل وجوه العابرين وأصواتهم في الطرقات والساحات حيث التفاصيل ما يزال يتردد صداها في داخلي.

أتحامل على نفسي كي أستجمع ما تناثر من صور عبث الزمان بروحها فتقسو علي الجراح حينما أتذكر المفقودين الذين التصقت أرواحهم بالأرض قبل أجسادهم.

ذهبوا بتاريخهم وأغلقنا الأبواب من بعدهم فليس بيننا من ينتظر مواسم الربيع.

مجهول

ترك الرمال وراءه.. سلخ جلده المترب..
زحف إلى أزقة الفقراء، الأبنية متعرّجة، قمر السماء
يسبح في دخان.

طرق الأبواب والشبابيك المغلقة، حملت الرياح
روائح عفونة ماء وعطر هارب من امرأة، تجسّد له
العطر صدر امرأة تحسس تضاريسه تغلغل بين طياته
لعق لبنه، سقطت منه قطرة لبن إلى الأرض، صاح
كطفل فقد أمه، لعن الأزقة والفقراء...

البرد

في زمن القرية البعيد ينام الليل ملتحفاً بسواد الغيم الحالك لا يوقظه إلا دويّ الرعد ونغمات أصوات الماء على الأواني الفارغة التي وضعت لحماية أرض البيت الخالي حتى من أنفاس الفئران.

تشتد كثافة البرد القارس عندما يبزغ فجر ذلك الليل.

يجتمع الأطفال بالقرب من نار «الملـه» المشتعلة... تتزاحم أيديهم المنكمشة والمرتعشة

بالقرب من إبريق الشاي الرابض على أكوام الرماد وبقايا جمر القبس.

يخرج الأطفال من منازلهم تاركين الدفء وراءهم استعداداً للذهاب إلى المدرسة... يسيح نظرهم بين الأرض والسماء فيبهرهم تناسق ألوان ثمر اللوز الأبيض مع الغيوم وهما يتعانقان... تطربهم أصوات هدير السيل في الوديان و ثغاء الأغنام المحبوسة.

يثيرهم تساقط رذاذ المطر البارد على وجوههم الساكنة، يشدون أطراف عمائمهم حول رقابهم ويمسحون أنوفهم بأكمام ثيابهم اليابسة ويوجهون خطاهم إلى المدرسة.

أنفاس الورد

كانا يلتقيان في زوايا طرقات القرية المعتمة عند كل مساء. يتهامسان. . . يتعانقان. . . تحفهما رائحة القهوة المنبعثة من بين شقوق جدران البيوت العتيقة، كانا كحلمين غارقين في بحر من اللذة والهيام. هي في السابعة عشرة من عمرها وهو يكبرها بعام واحد.

لم يدع لهما الزمن خيار البقاء معاً. . فقد عبث بأحلامهما وفرّق بين قلبيهما.

سافر الشاب إلى أمكنة بعيدة طلباً للدراسة على أمل أن لا يطول الغياب.

ترك حواسه في ذلك المكان وذاب جسده في مدن الملح. امتد الغياب كثيراً حتى شاخ جسديهما.

في خريف العمر انكبت على الورق الأصفر لتكتب إليه:

ما زالت روحي تنبض بالحب.

لكن أين الآخر؟.

أين النصف الثاني للقلب؟

أين العطر؟.

أين الطرقات الحجرية؟

أين البرد؟

أين أبخرة القهوة والخبز الحاف؟

أين الضوء الخافت وأين الدفء؟

أين الثغر الباسم وأنفاس الورد؟ .

من يفهم كلماتي . . .

من يسمع آهاتي . . . ضحكاتي .

من ينسج على قطرات الماء أحلامي .

إإإيه . . . يا أنت . . . أيقظني من أوهامي

وجاوبني . . . أين؟ . ومن؟ .

ما الذي حدث؟

أرى بياضاً تحمله الملائكة. . . يهبط من السماء تدفعه الرياح كالحرير يسير خلسة في الطرقات بين البيوت. . . يطرق الأبواب. . يصافح الوجوه.

تصاحبه ترنيمة الرعد الرائعة. . أسمع عزفها قادم من الفضاء.

لف البياض روحي برفق وحملها معه إلى السماء. .

صور قديمة

رياح تعصف بسنابل قمح خضراء لم يكتمل نموها لتشكل نصف دوائر منحنية. . .

طرقات حجرية ضيّقة مزدحمة بدفء أصواف الأغنام العائدة وجو مُشبع بثغائها. . .

صراخ أطفال جياع خلف أُمهم الذابلة والمنهكة. . .

دخان يتنفس من قلب البيوت يصعد إلى الفضاء ويتلوى كراقصة باليه. . .

بقايا شمس خافته على قمم الجبال وأسطح المنازل كإكليل ورد. . .

سحابة بيضاء مغادرة دوماً إلى الشمال. . .

لسعة هواء بارد تنكمش منه الأجساد وتحرك رائحة الأعلاف المعجونة بطين الأرض. . .

صوت أذان المغرب. . غناء الروح الأبدي. . .

يلفهم جميعاً بهدوء لون قمريّ. . . ثم سكون.


فكرة

تنفّست بعمق رائحة السمك النتنة وعبَق المطر الأسود ومجاري أكوام اللحم، لعِقت تعرقات أصابعي وأطلقت عنان الأحداق تتماهى في قاع الأودية ومرايا الجدران.

التصق حذائي بالأرض ونفضت الغبار عن شعري.

كم أنا مسكين، ملكَتني الحيرة، أمسكت بعصا

الشيطان، سقيت الصخر بشرايين دمي ونبت في جلدي اللون الأسود!

لوّحت بيدي في أرجاء الكون، ارتد صدى أحلامي من عينيَ طفل نبت فيهما اللون الأسود!

عدت إلى المستنقع وتنفّست رائحة السمك النتنة، قد استلهم فكره.

الليل القاتل

البيوت نائمة. والمطر يضرب بعنف أسطح المنازل والعلب الفارغة في إيقاع سريع متناغم تعبث به الرياح حيناً ليكمل دورته الإيقاعية على أوجه الأبواب والشبابيك.

استيقظت فاطمة مرعوبة (كابوس قاتل زارها في المنام)

أشعلت ضوء الفانوس وأخذت تتحسس أطفالها.

فتحت الباب، لترى حال المطر و كم بقي من الليل.

رائحة الطين والخشب وروث البهائم تسللت إلى المكان.

قشعريرة سرت في جسدها.

أوقدت ناراً ليدفأ المكان.

أيقظت أطفالها الصغار.

جلس الأطفال القرفصاء في حلقة وأيديهم ممدودة جهة النار.

لماذا أيقظتنا في هذا الوقت المبكر يا أمي؟! سألها أحد الأبناء.

لم يعد لنا مقام في القرية يا بني!، سنحزم أمتعتنا ونرحل مع بزوغ الفجر!.

ولماذا يا أمي؟ .

لقد زرع الأشرار الفتن في كل مكان من حولنا وبدأت تقلقني الأحلام والرؤى.

ولماذا زرعوها؟ .

انتقاماً من والدكم.

ولكن أبي مات، قتلوه، ألم يكفهم ذلك؟

التصق الطفل الصغير بجسد أمه وسألها:

من الذي قتل أبي؟ .

. .أوعز رجل القرية القوي دميم الخلقة والمتسلط إلى مجموعة من السُّفهاء بطرد أسرة فقيرة ويتيمة من القرية لرفضها تزويجه بابنتها الصغيرة.

حاول أبوكم منعهم ودخل معهم في شجار عنيف انتهى به إلى الموت.

ضربوه، خنقوه، رموه بصخرة ثقيلة على رأسه، حملوه جلداً ممزقاً وعظاماً مهشّمة ودماء..

رموه في النار حتى لا يبقى له أثر..

احترق جسمه.. أصبح دخاناً ورماداً واختلط بالهواء.

بدأ الحنق والغضب على أحد الأبناء وهو يسأل أمه:

ألم يساعده أحد؟ أين أقرباء أبي ؟.

عاش أبوكم يتيماً ومات وحيداً.

وأنت يا أمي؟. أين أقرباؤك؟ ولماذا لم تدافعي عنه؟

آه. . . . ليس لي مغيث في هذا المكان يا بني. . .أنا من قرية بعيدة جداً لا تسمع ندائي.

لن نغادر هذا المكان يا أمي. . . روح أبي كامنة في كل زوايا البيت نشمّ رائحتها في كل ذرة هواء ونستلهم منها الفخر.

أسئلة أبنائها أخذتها بعيداً حيث الخوف عليهم، والحزن والألم على فقد أبيهم.

كان أبوكم لا يرضى الظلم، رجل شهم وشجاع في عينيه لون وبريق عينيَ النمر، إنه يشبه أخاكم بدراً، يشبهه في حركاته وسكناته، التفتت إلى الخلف وسألت وهي مذعورة: أين بدر؟

سكنت أنفاس الأطفال!!.

خطفت جذوة مشتعلة من النار، وبحثت عنه بعينين زائغتين.. لم تجده!

فتحت باب الدار... ظلام... مطر.

ريح قوية اندفعت إلى جذوة النار المشتعلة فأطفأتها.

دوى صوت الرعد.. أعقبه برق كشف جسد الأرض،

رأت جثة ابنها ملقاة على عتبة باب الدار وقد خُلعت عيناه،

انكبت عليه، ضمّته إلى صدرها ثم صرخت...

الدخان الأسود

الدخان الأسود يلف نصف المدينة.

بقع سوداء تستقر فوق البنايات، وفي الشوارع وعلى المارة.

عمال النظافة ينتظرون في حافلتهم.

الذباب يترنّح... يسقط... ثم يعود ويقف... يحك رجليه الخلفيتين إحداهما بالأخرى... ينفض جناحيه يستعيد نشاطه ثم ينطلق.

يتوقف الدخان... ويبدأ العمال كنس الشوارع وتنظيف رؤوس المارة.

عصير

طابور من السيارات تنتظر أمام كشك عصير على جانب الطريق السريع.

حرارة الصيف والرطوبة تلهبان عطش السائقين وتبطئان تنفسهم.

بعد انتظار نصف ساعة وصل إلى الكشك، نظر إلى قائمة الطلبات أمامه:

عصير ركب النمل، عصير الجرجير، عصير صاروخ آخر الليل.

مط شفتيه، واستنشق كمية كبيرة من الهواء الرطب،ابتلع لعابه ثم أدار محرك سيارته وترك المكان.

الجرذ الأبيض

حركة أقدام حافية تسير متعاكسة كنمل أسود أضاع هدفه في أزقة تعج بالنفايات وجماعات الذباب والهواء المليء بالرطوبة والغبار وروائح العرق المتراكم ومياه المجاري الآسنة.

تختلط قبائل الجرذان والقطط الضامرة والكلاب المريضة بعالم منسي من الأفارقة الفقراء المعدمين والمجهولين، وبعض الملونين الآسيويين.

أوقف بائع الليمون عربته في ظل أحد البيوت،

وأخذ يصيح بصوته الحاد:

ليمون..

ليمون.

زاعماً أنه يلطف مزاج المارة المتوتّر والمضطرب.

مسح بأطراف أصابعه جبينه وهو يردّد:

ليمون.. ليمون.

فتحت باب الدار الذي يقف بجانبه البائع طفلة في التاسعة من عمرها، مدت إليه بورقة الريال، صب لها عصير الليمون في كيس من البلاستيك وناولها بعد أن أحكم إغلاقه.

عادت تحمله إلى أمها التي فاجأها مخاض الولادة.

اقتربت من أمها المستندة إلى أحد جدران البيت العاري إلا من ظل سقفه ورائحة عطر سيئة ،

قدمت لها العصير لعله يخفّف عنها تعب آلام الولادة.

أمسكت الأم بيد ابنتها وهمست لها بصوت متقطع وقالت:

اذهبي إلى جارتنا في الحال وأخبريها بحالتي واطلبي منها أن تأتي لمساعدتي.

خرجت الطفلة تشق طريقها بين كتل الأجسام بصعوبة. أخذت تطرق الأبواب المتآكلة والمتلاصقة

الواحد تلو الآخر، لم يجبها أحد فهذه الساعة من اليوم وقت عمل النساء في نبش النفايات من أحياء المدينة المترفة.

استمرت في البحث وطرق الأبواب، سارت بعيداً جداً حتى تاهت في فوضى المكان.

ألقت الأم بجسدها المنهك على الأرض وتمدّدت على فراش مهترىء.

أخذت تحدق إلى تراقص ذرات الغبار من خلال خيط ضوء مندفع من شقوق الجدران.

تابعت خيط الضوء حتى انتهت إلى نقطة كبيرة استقرت كشاشة سينمائية على الأرض.

استعرضت شريط حياتها المؤلم!.

اسمي عائشة.. معلومة المكان مجهولة الهوية والأهل.. منذ أبصرت النور في هذا المكان الموبوء ويومي كالأمس مغلق الأبواب.

عشت حياة مختنقة في وسط بيوت خرِبة وأكوام من الفقراء.

قسوة الإنسان لم تُعطِ امرأة مثلي لا تملك إلا جسدها الأنثوي الصغير طريقاً آخر لتقتات منه إلا امتهان البغاء. نهش الرجال جوعي ومزّقوا إنسانيتي، قتلوا أحلامي ولم يعد يعنيني وجودي. تلاشت نقطة الضوء من أمامها، وانقطع شريط الذكريات سريعاً قبل أن يكتمل.

التفتت ناحية الجهة الأخرى وتوسد خدها

التراب، فرّت منها دمعة ألـم وغصت بالحزن، وساءلت نفسها قائلة:

هل نحن بشر؟.

لماذا نعيش معزولين في دائرة التخلف والجهل والمرض؟.

إلى متى يُنظر إلى الإنسان الأسود كجرذ لا يستحق العيش إلا تحت الأرض؟

متى تقرض الجرذان جدار السد لنعيش الحياة كما يعيشها بقية البشر. دهمتها آلام الولادة. أنَّت، عضَّت شفتيها، تفصد جبينها بعرق ككرات البلّور، انقبضت عضلاتها.. اتسعت حدقتا عينيها.. صاحت من الألـم.. صرخت. رفعت رأسها، حاولت الإمساك بشيء، لم تجد إلا الفراغ، دفعت

عضلات بطنها إلى الأمام بقوة، مع دفقة الدم الأولى اندفع بين ساقيها مخلوق أبيض.

تورات شمس النهار خلف جدار غرفتها. غرقت الأزقة في بحر الظلام المُعتِم، رغم امتداد فوانيس الإضاءة في الشوارع المقابلة للحي.

دفعت يد سوداء الباب، تسللت خلسة كأفعى عملاقة إلى داخل المنزل، أزاحت عن طريقها عنكبوتاً متدلياً من سقف الغرفة، اقتربت من المولود.. لمسته.. تحسست جسده. نفضت الحشرات المتكومة على حبله السّري، وقطعته. لم يبكِ! لم يصرخ! لفته بملاءة سوداء، حملته بخفة، عادت من حيث أتت تلاشت وسط الظلام وتركت الباب خلفها مفتوحاً لتتسرب منه رائحة الموت.


حافلة البلد

في ليلة مبهمة خرجت من المنزل لا أعرف إلى أين.

ساقتني قدماي إلى مقبرة مجاروة.

السلام عليكم دار قوم مؤمنين..

المكان موحش، فوضى من العظام. غصت في داخل الزمان. أحاط بي أنين الأرواح وحديث الموتى.

أمسكت بجمجمة، تحسستها بيدي، أدخلت أصابعي في تجاويف العينين.

رفعتها إلى مستوى بصري، تساقطت منها بقايا أتربة وعناكب ميتة.

دهمتني التساؤلات..

لمن تكون يا ترى؟..لوزير.. لفقير،لظالم أم مظلوم!.

هل يتنعم صاحبها في الجنة أم يتعذب في النار.

متى تغرس رؤوسنا المحشوة غروراً بجوارها؟ اليوم، غداً، بعد عام... أقل؟ أكثر؟....

رميتها على الأرض ومشيت، سمعت صوت حطامها خلفي، ربما وقعت على صخرة.

لم ألتفت إلى الوراء.

خرجت من عالم الأموات إلى عالم الأحياء.

ركبت حافلة البلد ، لا أدري إلى أي عصر تنتمي هذه السيارات وفي أي بلد صنعت.

شاهدت أمثالها في مدن: كاراكاس، دلهي ومانيلا.

سلكت بنا الطرق مسرعة محطّمة كل قواعد السير.

بعد صراع مع الصداع والغثيان، حطت بنا الرحلة في وسط البلد.

عمارات وبنايات شاهقة يكسوها الرخام الفاخر والزجاج المصقول.

ازدحام بشري في كل مكان، اختلاط والتحام بين أجساد النساء والرجال.

أصوات نشاز للبائعين الجوّالين بلغات متنوعة متداخلة وغير مفهومة.

بضائع من الهند. .الصين. . . .وتايلاند. . . . .

جلست على مقعد اسمنتي بقرب بناية شاهقة.

تفرّست في وجوه المارة محاولاً قراءتها.

جلس إلى جانبي رجل وامرأة من جنسية شرق آسيوية. صديقان.. زوجان..

لا أعلم، لكن بينهما حميمية دافئة.

تتبدل أمامي الوجوه وتتغير في أمواج متلاحقة، أشكال وألوان متباينة، وقد أنهك بعضها التعب.

هذه الملامح تخفي وراءها، المجرم الخطير.. العاشق... المحروم... المهموم...

مرت أمامي امرأة ممتلئة القوام، تمشي بغنج الغواني وقد أسدلت على وجهها غطاء أسود شفافاً يسمح للرائي بمشاهدة جمالها الأخّاذ وأنوثتها الطاغية.

لماذا عمدت إلى فعل ذلك؟ ربما قصداً للإغواء أو للتباهي بحسنها، هل هي متزوجة... سعيدة في حياتها؟.

لم أهنأ بالمقام، فلم يكف الحمام عن إسقاط رغوته اللزجة المزعجة.

مسحت ثوبي واتجهت إلى داخل البناية.

يا لروعة المكان...

استقبلني هواء عليل ونسيم بارد.

روائح متنوعة، بخور شرقي.. بن برازيلي... عطور باريسية ونساء متأنقات.

أحسست وكأن قدميَّ ترفعان جسدي في الهواء وتدفعانه ليطير متتبعاً تلك الروائح.

اصطدمت بالسلّم الكهربائي المتحرّك ووقعت أرضاً.

قهقهات وضحكات صدرت من خلفي،

استدرت إلى الوراء، مجموعة من الشبان رائقي المنظر، ولم يمنعهم ذلك من مساعدتي.

التقطت [illegible] وهممت بالمغادرة

- شكراً يا شباب.

- عفواً يا عم.

يا عم!!!.. لفظة لم أعهدها، لقد أنستني ألمي

ابتعدت عنهم قليلاً.

ألصقت وجهي بزجاج محل ساعات فاخرة.

تفحصت وجهي، مررت يدي عليه.

يا إلهي ما هذه الأخاديد الغائرة والنتوءات!.

بدا لي وجهي وكأنه خاض معركة مع الزمن غير متكافئة تركت آثارها على ملامحه.

يا لسوء حظي! حتى الصبغات والألوان لم تخف منابت الشيب.

اقترب مني بائع الساعات وسألني:

أي خدمة يا عم. لم أحفل به.

تركت الزمن ووجهي الذي لا أريده على صفحة المرايا ومضيت.

بدت عن يساري لوحة نيون كتب عليها:

بيت الدونات.

دلفت داخل المحل، شاهدت أطايب الحلويات المتعدّدة.

- سألت البائع: لو سمحت هذه بكم؟

- هذه. أشار بيده.

- لا... لا... هذه.. المغطاة بالشكولاته.

- بسبعة ريالات، أجابني عامل المحل.

- أعطني واحدة.

أدخلها النادل مع مجموعة مناديل في كيس.

- تفضل سيدي.

- شكراً.

خرجت إلى بهو المبنى.

بحثت عن مكان للجلوس.

ما أن هممت بالجلوس حتى رن جرس الإنذار وتوقف، ثم تبعتها رنات متقطعة.

سمعت صراخاً من بعيد حريق... حريق.

تسارعت بارتباك حركة المتسوّقين،

اكتظت أبواب الخروج وتدافع الناس بشكل دائري.

بدأ عويل النساء وبكاء الأطفال بالارتفاع.

قوة مغناطيسية جذبتني عنوةً إلى عمق الدائرة البشرية.

طارت الدونات في الهواء، ولما أتذوق طعمها بعد،

لحق بها الكيس والمناديل.

تراءت لي الحشود هياكل عظمية متحركة.

يا الله هل دقت ساعة النهاية!.

أصبت بدوار، لم أتمالك نفسي وسقطت بعنف على الأرض الصلبة.

هرب مني رأسي وهربت أيضاً أطرافي.

بكيت..ناديت من يجمع أشلائي، لا أملك جهداً لمقاومة الموت.

أحسست بيد تسحبني برفق.

فتحت عيني المرهقة ببطء. لمحت زوجتي وقد أسندتني إليها، وضعت قطعة قماش باردة على جبيني.

تنفست بعمق استجمعت قواي، لكني ما زلت أشعر بثقل في رأسي وبرودة تسري في جسمي.

آآآهـ . الحمد لله، إنها تمتمة وهذيان الحُمّى، قالت زوجتي.

اختطاف قلب عروس

أعلنت شركة طيران العالم موعد إقلاع رحلتها رقم 1042 والمتجهة إلى باريس.

بدأ المسافرون الاصطفاف في طوابير مزدحمة أمام البوابة رقم23 استعداداً لصعود الطائرة.

همست سحر لهشام وهي تستعد لحمل حقيبتها..

بماذا يذكرك رقم البوابة؟

رد قائلاً: إذا صح تخميني فهو يماثل عدد سنوات عمرك!.

ولماذا لا تكون متأكداً؟

أجاب: ذاكرتي تحتاج إلى إعادة تأهيل يا حبيبتي.

نظرت إليه وقالت: يا سلام!!، لم يمض على زواجنا سوى يومين!.

رد باسماً: وثلاث ساعات أليس كذلك؟..

ضحكا معاً واتجها إلى الطائرة.

أخذت سحر مكانها في جوار النافذة لتستمتع برؤية جمال الأرض من الفضاء كما سمعت عن ذلك من صديقاتها.

الانضباط والابتسامة يسودان الأجواء داخل الطائرة.

- قلبي يرجف يا هشام!

ولماذا؟

أنتَ تعلم أن هذه أول مرة أركب فيها طائرة ؟.

وضع يده على يدها وقال: لا تخافي فأنتِ معي.

ربطت الحزام واسترخت في مقعدها بعد أن أعاد دفء يده الطمأنينة إلى قلبها.. ملأت رئتيها بالهواء وتنهدت بعمق.

حطت الطائرة في مطار شارل ديغول في ساعة متأخّرة من الليل.

أزياء الناس.. ألوانهم ولغتهم عالم مختلف.....

خرجا من المطار وركبا مباشرة في أول سيارة ليموزين.

ناول هشام السائق عنوان الفندق، وطلب منه بلغة فرنسية ركيكة زيادة السرعة قليلاً لإحساسه بالتعب «الطيران المتواصل والانتظار الطويل في المطارات استنزفا جل طاقتيهما».

ظلا ينظران بانبهار عبر نافذة السيارة إلى أضواء باريس الساحرة وشوارعها المُترعة بالحياة. أخذت السيارة تطوي الشوارع بسرعة رغم هطل الأمطار بكثافة.

وصلا إلى الفندق المحجوز لهما فيه مسبقاً.

رمت سحر جسدها المنهك على السرير.

وقف هشام أمام شرفة الغرفة ينظر إلى أجواء المدينة، أخذ الهواء البارد يتدفق على جسده الذي ما زال يحتفظ بدفء مدينته.

في صباح اليوم التالي وبعد أن فرغا من تناول فطورهما في مطعم الفندق اتجها مباشرة إلى الشانزلزيه أشهر شوارع باريس.

قالت سحر: البنايات والمحال التجارية في تناسق وتناغم بديع.

رد هشام: ويزيدها روعة رذاذ المطر وبرودة الجو.

ابتلع الضباب الشوارع والبنايات الشاهقة.

صاحت سحر: لم أعد أرى شيئاً!

ولا أنا!

تعالي إذاً ندخل هذا المحل..

«أوه».. إنه محل للأزياء؟..

لم يمكثا طويلاً.. خرجا من المحل بعد تلاشي الضباب.

استمرا في المشي حتى قوس النصر.

نالهما التعب والجوع وعادا راجعين.

في مساء اليوم الثالث غطى أفق باريس غسق مخملي كلون الشاي،

قال هشام: أنتِ مدعوة الليلة يا حبيبتي للعشاء في مطعم فاخر!.

قالت في نفسها: «أوه» النساء في هذه الأماكن لبسهن مثير.

- بعد حلول الليل ركبا سيارة أجرة أوصلتهما إلى أحد المطاعم الشهيرة.

دخلا المطعم، وقادهما النادل إلى إحدى الطاولات، وقدم لهما كأسين من العصير.

- الموسيقى الحالمة وشاعرية الإضاءة، لامست أحاسيس مبهمة عند سحر. ألقت بنظرها إلى الأسفل لينكشف جمال ظل عينيها، حرّكت بعفوية خاتمها الماسي، طلاء الأظفار ما زال زاهياً.

جذبها هشام إليه، فاحت رائحة إغراء عطرها الأنثوي، قال لها بصوت خافت: أحبك! دفعته برفق وقالت: هل جُننت!. ألا ترى؟ تكاد نظرات الموجودين تلتهمنا!

قال: لا أحد يأبه لأحد هنا.

قدّم النادل لهما قائمة الطعام..

لا تختر مأكولات غريبة وتسبب لنا إحراجاً يا هشام!

سنتناول يا حبيبتي حساء وطبق فاكهة البحر.

خرجا من المطعم بعد السّهرة ، أخذا يسيران بتأن في طرقات الحدائق المقابلة للمطعم.

واصلا السير بعيداً حتى توقفا عند أحد الميادين

أمام حشد من الجماهير وهم يتمايلون في حماسة مستمتعين بسماعهم لإحدى الفرق الغنائية.

حشرا جسديهما بين الجموع بدافع الفضول ليتمكنا من الوصول إلى المقدمة.

اقترب رجل مخمور من سحر واحتضنها بين يديه.. صفعه هشام، وجر سحر بيدها وتركا المكان.

مرت عليهما نهارات باريس مُفعمة بترف الجمال. مشيا طويلاً على الأرصفة، وفي الساحات والحدائق، توقفا كثيراً في المقاهي والمطاعم، شاهدا الفراشات والنوافير، تشبعا بهواء الغابات، ظللهما الغمام، اغتسلا بمياه الأمطار. صعدا برج إيفل،

استمتعا بفنون اللوفر، أدهشهما عالم ديزني ومُتعة الخيال فيه. تبادلا في الليالي أعذب الآهات والكلمات، مارسا الحب، لفهما الفرح، وذابا في أعذب الغزل والغرام.

في مساء اشتد فيه المطر لم يتمكنا من الخروج مما اضطرهما للبقاء في غرفتهما.

أسند هشام ظهره إلى الوسائد المتراكمة خلفه وأخذ يداعب شعر سحر المموج بعد أن مالت بجسدها على كتفه.

بدا الهواء المندفع من النافذة المفتوحة يداعب سحر وهي ساهمة.

سألها: ما بك؟ فيم تفكرين؟ أفكر في العودة!.

اعتدل في جلسته. وقال باستغراب:

ماذا؟ تفكرين في العودة؟ ولم؟.

اشتقت إلى أهلي كثيراً!.

لا.. لا.. هذا ليس عذراً. لم نأت هنا لنعود بهذه السرعة، هل هناك شيء آخر يزعجك؟

نظرت إليه بابتسامة باهتة وقالت:

لا.. لا يوجد شيء آخر... ولكنني لم أعتد الابتعاد عنهم.

وهل هذا قرارك الأخير؟ أم هي نزوة عابرة!..

أحاطته بذراعيها وقالت:

أرجو ألا تغضب مني.

كما تريدين، سأحاول غداً تقديم الحجز.

استيقظ في اليوم التالي مبكراً، أخذ حماماً دافئاً،

خرج بهدوء حتى لا يوقظها من نومها وتركها مقرفصة في قميصها الحريري، وضع ورقة في جوارها يخبرها بمغادرته واتجه إلى مكتب السفر.

هل من الممكن سيدي أن تجد لنا مقعدين على رحلة اليوم أو الغد؟

إلى أين؟ سأله الموظف.

تفضل هذه التذاكر، أجابه.

حرك الموظف مؤشر جهاز الكمبيوتر ثم قال: يوجد في رحلة هذا المساء مقعد في الدرجة الأولى والآخر على السياحية.

أرجوك، حاول أن يكونا متجاورين.

لا تخف قد تجد في الطائرة من يستبدلها منكما.

مطار ديغول الساعة العاشرة مساء. . .

احذري فقد جواز سفرك والتذكرة.

لا تتركني وحيدة ياهشام ، هذا المطار كبير ومتعدّد المداخل.

للمرة الثانية أقول لك أنت معي، اذهبي إلى هناك حيث المكان المخصص لركاب الدرجة الأولى وأنا سأذهب إلى مكان الدرجة السياحية، سأختبر ذكاءك وشجاعتك.

نلتقي في الطائرة. . . .

الجو خانق داخل الطائرة، لبس الركاب ثياب

الفوضى. شق هشام طريقه بصعوبة إلى الدرجة الأولى. استقبلته سحر بابتسامة غائمة، كانت هي الوحيدة الجالسة في المقصورة، المكان واسع وفخم، هناك باقات من الزهور وضعت أمام المقاعد.

أها. . أنتِ مهمة جداً إذاً يا سحر؟

ليس الأمر كذلك ولكن يبدو أن شخصيات مهمة ستغادر معنا في هذه الرحلة! رأيت ذلك في صالة الركاب.

هل ستبقى معي هنا أم آتي معك؟.

ابقي هنا وأنا سأعود إلى مكاني فقد أخبرتني المضيفة أن المقاعد ممتلئة ولا يوجد مكان شاغر، لذا. . و. . .

قاطعتهما المضيفة وطلبت من هشام مغادرة المكان.

ذكّرها أن لا تغادر الطائرة إلا معه.

عاد إلى مقعده مطمئناً، شرب كأساً من الماء، .. وغاص في أحلامه. أحس بخدر في جسمه، ووضع رأسه على ظهر المقعد ونام. أفاق على صوت إعلان الاقتراب من الهبوط في المطار، لم يترك الطائرة تتوقف تماماً، قام مسرعاً رغم تنمل رجليه إلى الدرجة الأولى، عندما هم بالدخول منعته المضيفة!.

قال: إن زوجتي هنا «وأشار بيده إلى الدرجة الأولى».

أجابته: انتظر قليلاً لو سمحت.

وقف أمامها بقلق، فرك يديه المتعرقتين، كور قبضته، ثم عاد وبسط أصابعه.

وأخيراً سمحت له بالدخول.

يا الله....

المقصورة خالية من الركاب؟، جال ببصره في كل مكان، لا أحد! تراخت عضلاته، أخذ يتساءل وهو يضرب يديه إحداهما بالأخرى! أين هي؟ لماذا خرجت بمفردها!؟.

لمح من النافذة موكباً من السيارات السوداء في جوار الطائرة وهي تغادر المكان!.

اقتربت منه مضيفة وسألته: أنت السيد هشام؟

نعم، أنا هشام! هذه رسالة تركتها لك إحدى الراكبات.

أخذها وقرأ بعينين هامدتين:

«هشام.. لا تبحث عني.. سأتدبر أمري مع أهلي، أرجو أن تبعث ورقة الطلاق إلى هذا العنوان...»

الإمضاء سحر.

علياء

سألت علياء زوجها وهي تسير راكضة خلفه:

إلى أين المسير؟ أين تريد الذهاب بي؟.

رد زوجها وهو راكب على ظهر حماره قائلاً:

إلى قرية الشروق حيث أهلك.

ولماذا؟ لم أفعل لك شيئاً! هل تأخيري عن تقديم الطعام يستحق هذا العذاب؟! هذا ظلم!.

- لا أطيق الانتظار وتكرار الأوامر. لقد زادت أخطاؤك وصعُب علاجك.

- والأطفال؟ سألته بصوت خافت وهي تمسح الدموع المنهمرة من عينيها. ما ذنبهم؟!، و من يربيهم؟!.

ـ جدتهم تكفلت بالاعتناء بهم.

حف الصمت المكان لا يقطعه غير وقع حوافر الحمار على حجارة الطريق. وحشرجة صدرها المسكون بالحزن وهي تلهث خلفه.

لاحت لهما من بعيد شجرة شبه جرداء ممتدة فروعها إلى السماء.

تراءى لعلياء الطريق طويلاً والوقت كأنه دهر.

أخذت حرارة الشمس بالارتفاع.

وضع الرجل مظلته على رأسه اتقاء حرارة الشمس.

ما زالت تجري خلفه محاولة الإمساك به لعله يعود عن قراره.

قدماها الحافيتان تصطكان بحجارة الطريق وأشواكه.

لم تشعر بنزف الدم من قدميها فقد بلغ منها الجهد مبلغه.

نادته: أمهلني لحظة؟ اسمعني؟.

لم يلتفت إليها.

الدم والدموع والعرق يتصبّب منها والخوف مرتسم في عينيها الغائرتين.

وصلا إلى الشجرة الجرداء، نصفها ميت، يتدلى من أحد الأغصان اليابسة عش طائر مهجور.

أحس الرجل بالتعب، أوقف حماره، نزل ليحتمي بظل الشجرة.

جلست أمامه القرفصاء، مدت يدها إلى أصابع قدميها المجروحة، صبت التراب على الجرح لعله يوقف نزف الدم نظرت إليه بعينين مغرورقتين بالدمع اقتربت منه، وكلمته بشفتين مرتجفتين،

أرجوك أرجعني إلى بيتي!.

اشتقت إلى أطفالي، أعدك أن أكون أمةً لك، لا أريد العودة إلى أبي وأمي.

أرجوك.. أتوسل إليك!

انكبت على قدميه تقبلهما وهي تبكي بألم الأم المكلومة.

دفعها برجله . . اصطدم رأسها بصخرة ناتئة،

هب واقفاً وبإشارة من يده طلب منها بصوت أجش الذهاب ومواصلة المسير إلى أهلها.

ركب دابته وقفل عائداً.

ظل جسدها مسجّى تحت شجرة الموت بعد أن مزقت رياح الصيف الحارة ما تبقى لها من أنفاس . . .

فراغ المكان

يومان مضيا من حياتي وصلت في خلالهما أجواء المنزل إلى درجة الغليان نتيجة كرات النار المشتعلة التي أقذفها في كل مكان، أصابني تشنج وتوتر وصراع مع نفسي وأهلي، يصدر مني انفعال وهياج لأتفه الأسباب، ينتابني خفقان في القلب وارتعاش في الشفتين والأصابع، فقدت شهيتي للطعام ورغبتي في النوم، كلمة (لا) تثيرني، وكلمة (طيب) لا قيمة لها عندي!، لا أستسيغ المناقشة،

ولا أجيب عن سؤال!، أرى في نظرات زوجتي وأبنائي استفزازاً، وفي كلامهم تهديداً، فقدت توازني وانضباطي في حديثي، وتصرفي، خرج عقلي عن تفكيره السليم والمنطقي، خلاصة الأمر ضاق علي البيت بما فيه وأصابت أسرتي الدهشة والحيرة من أمري.

في هذا الجو المكتئب والحال المنفلت اعتصرني الألم والصداع، تركت البيت وذهبت إلى إحدى المكتبات لعلي أجد في كتب علم النفس التي تختص بنشرها مخرجاً من هذه المعضلة، وصلت إليها قبل الساعة الخامسة مساء، وجدتها مغلقة، اتجهت إلى مقهى في ركن المركز التجاري حتى يحين موعد فتح المكتبة، جلست إلى طاولة مربعة

لها مقعد واحد بعد أن سلمت على شابين من أمن الحراسة، هما الوحيدان الجالسان في المقهى، وربما في المركز، وكان أمامهما قارورتا ماء، واثنان كابيتشينو، ومجموعة من الولاعات وعلب السجاير الفاخرة!!!.

أشرت للعامل أن يأتي، طلبت منه شراب الطاقة بايسون لقدرته على تكثيف الانتباه وزيادة التركيز كما فهمت!! وكذلك طلبت ماء من أجل أخذ الدواء الذي صُرف لي نتيجة إصابتي بحساسية في رئتي من الغبار الذي استوطن صدري قبل أن يستوطن مدينتي شهراً كاملاً، وكان من المفترض تناول الدواء بعد الغداء، ولكن نتيجة لوضعي المرتبك نسيت ذلك رغم حرصي الشديد عليه!،

ومن حسن حظي أن زوجتي وضعته في جيبي، وأرسلت بعد مغادرتي رسالة عبر الجوال لتذكيري. جاء العامل بالطلب، وضعه أمامي مع ابتسامة ناقصة، ورائحة قلْيِ زيت قديم تفوح من أسماله زاد من توتري، مسحت علبة المشروب ولففتها بمنديل، شربت منها رشفتين ملأتا فمي، واتكأت بخدي على يدي، نَقْرتُ بأصابعي على وجنتي، وأنا أتأمل المكان ورسومه الجدارية الدعائية.

لم تفلح محاولاتي في الخروج من وضعي، فقد أحسست بضيق في صدري وصعوبة في التنفس، وبدت عيناي وكأنما هما تدوران في فراغ المكان، عدت بجسمي إلى الوراء واعتدلت في جلستي. أزحت بذراعي علبة المشروب إلى نهاية الطاولة،

ومددت يدي للماء، وملأت نصف الكاس، أخرجت علبة الدواء من جيبي، وبعد معركة مرتعشة تمكنت من فتحها! سقطت أثناءها روشتة العلاج على الأرض، أخذت أتفحّصها، وهنا تغير مجرى الحدث!، وصلت في مطالعتي لها إلى الآثار الجانبية للعلاج، وقد كُتب فيها التالي: الأعراض الجانبية المصاحبة لهذا العلاج، توتر، قلق، أرق، ارتفاع ضغط الدم، خفقان في القلب وارتعاش!!. حبست أنفاسي، وضغطت على الدواء بين كماشتي أصابعي وراحة يدي، وأكملتُ دهسها تحت قدمي، ومن ثم إلى حاوية الزبالة في جواري، مع بقايا علبة شراب الطاقة.

شربت قارورة الماء ونضخت رشات منها باردة

على وجهي، سكنت روحي قليلاً وسرى هدوء في جسدي. وقفت بسرعة استعداداً للخروج النهائي من كل شيء، ضربت بأعلى فخذي ركن الطاولة! عضضت على شفتي بتأوه!، تركت المكان، والطاولة ما زالت تترنح! وأنا في طريق عودتي إلى البيت بعد غياب نفسي القسري، دهمتني الأفكار، وتزاحمت في ذهني الأسئلة...

«نحن لا ندرك أو نعلم خبايا الكثير من الأحداث في البيوت، ولا نشعر بمعاناة أُسَرْ أُبتليت بزوج أو أخ أو ابن وقع تحت تأثير مخدر أو مرض نفسي... نتعاطاها كخبر ولا نشارك أحداً منهم في ألمه»!!.

رجل الحرب

من بين جثث الموتى والنيران المشتعلة خرج آخر الجنود المقاتلين يجر قدميه بتثاقل متجهاً إلى البحر بعد أن أحرقت آلات الحرب سنابل القمح ومزقت قلوب الأطفال وأجنحة الفراشات.

وقف أمام البحر ينظر إلى انعكاس قرص الشمس على أمواجه المتلاحقة،

رمى بندقيته جانباً وخلع ملابس الحرب وتقدم إلى داخله.

ملأ رئتيه المشبعتين بدخان الحرب بالهواء وغاص بعيداً في الأعماق.

غرس قدميه في قاع البحر لئلا تجرفه تيارات الماء.

كشف له ضوء الشمس المتسلل إلى قاع البحر جمال ألوان الأسماك وأعشاب البحر وعالمه السّحري.

أخذت أعداد هائلة من الأسماك وحيوانات البحر تتراقص من حوله.

حاول الإمساك بواحدة ولم يتمكن، كرر المحاولة ولم يستطع الإمساك بشيء.

كادت محاولاته اليائسة تنهي الأوكسجين الذي يمده بالبقاء.

ضاق صدره وتلاقت أضلاعه، شحب لونه وجحظت عيناه.

قرر العودة إلى سطح البحر ليعيد ملء رئتيه بالهواء.

لم توافقه قدماه المغروستان في القاع على العودة ولم تتركه أرض البحر يغادر المكان.

اقتربت منه جيوش الأسماك وأخذت زعانفها تداعب جسده المنهك.

شعر بوخز شديد في ساقيه.

صعد الألم إلى فخذيه.

بدأ جسمه يتمايل مع حركة الماء.

أصابه إعياء لكنه ظل واقفاً.

دهمته رغبة في التقيؤ.

سقط جاثياً على ركبتيه.

نظر إلى فخذيه ورجليه رآهما هيكلاً من العظم بعد أن غدتا وليمة لأسماك البحر.

أصابه الهلع وأرعبه المنظر.

ساورته خواطر النهاية في هذا المكان بعد أن أتاه هرباً من الموت.

انحدرت على عظمتي فكيه المتخشبتين دمعة أزاحت من أمامها دائرة كبيرة من الماء دفعت الأسماك بعيداً ما لبث أن أعادتها إليه موجة معاكسة.

أبعد عن قدميه ما علق بهما من رمل وأعشاب.

تركه البحر يرحل...

حمله الماء إلى السطح . .

لفظته الأمواج بعيداً بعد أن أصبح نصف إنسان . . .

طيور الحقل

في ليلة شديدة العتمة وفي ركن منزوٍ ببيت ليس ببعيد عن حقول الذرة المتناثرة على امتداد الوادي بين هضابه وسفوح الجبال، أشعلت جميلة فتيل المصباح الزيتي ووضعته في مشكاة الجدار، بدد الضوء الظلمة وكشف نوره بساطة المكان وجمال امرأة عزباء وحيدة مثقلة بالهموم. أسندت جميلة جسمها إلى الوراء، استطال ظلها ممتداً إلى سقف البيت، وضعت يديها خلف رأسها وحدقت إلى دخان المصباح المتصاعد

أمامها.. حملها الخيال إلى حديث ابن عمها..
استبد بها القلق وضاق عليها الليل وخنقتها العبرة فما زال صوته يطاردها صباح مساء..

أنت ما زلت رافضة الزواج؟

أرجوك دعني وشأني فأنا لا أرغب في الزواج!.

والحب الذي عشناه معاً!

لقد مات.. وماتت معه روح صاحبته.

نعم.. نعم لقد ماتت صاحبته...

اجتر خيالها المشهد كثيراً حتى غلبها النعاس...

في صباح اليوم التالي استيقظت من نومها.. أزاحت الغطاء عنها.. تثاءبت.. مطت يديها.

ما زالت مشوشة الذهن، غسلت وجهها ومشطت شعرها.

أعدت قهوة الصباح.. عدلت رائحة القهوة قليلاً من مزاجها. بعد أن فرغت من تناول فطورها ارتدت جبتها الصوفية وانتعلت حذاءها ثم خرجت متجهة إلى حقلها قبل أن يظهر نور الصبح وتلتهم الطيور غلة الذرة.

على ربوة مرتفعة في جوار الحقل تستظل سقيفة عتيقة بأغصان شجرة معمرة وارفة الأوراق، استلقت جميلة على القش المكوم داخل السقيفة، نظرت إلى جدرانها الصماء، تراءت لها تجاويف ونتوءات الجدران عيوناً باسمة. تملكتها الرغبة في الكلام معها والبوح لها بآلامها، خاطبتها، تحدثت إليها..

تكلمت وتكلمت... أتعبها الحديث مع الفراغ. هربت من داخلها ومن السقيفة.. خرجت مسرعة إلى الحقل، شاهدت العصافير البنية ذات المناقير الصفراء تحط في الحقل، طوت العصافير أجنحتها وهوت بمناقيرها على عرانيس الذرة، لم ترمها بمقلاعها. تعمقت جميلة في الحقل، أزاحت الأوراق والحشائش عن طريقها... اقتربت من العصافير، تأملتها.. ألهمها تعانق الطيور بأعواد الذرة جمال الحياة.. دخلت في نشوة سعادة ولذة فرح. غنت بصوت الأمل وسط الحقول فاضت عيناها بالدموع وغردت في الفضاء لن أبكي غداً فأنا الآن محررة ولم أعد وحيدة وخائفة.

رفرفت العصافير البنية ذات المنقار الأصفر

بأجنحتها تأهباً للتحليق بعد أن شبعت، مدت أجنحتها وطارت مخلفة وراءها جلبة أفزعت الجنادب الصغيرة.

تسللت حرارة الشمس من بين سيقان أعواد الذرة.. لامس الدفء قطرات الندى الغافية..

لسعت الحرارة الجنادب الصغيرة فتقافزت إلى ظل الأوراق.

عادت جميلة إلى سقيفتها والابتسامة تملأ محياها وقلبها نشوان ومفعم بالفرح.

أخرجها من نشوتها سماع أصوات رجال وهم يتحدثون بصوت خفيض ويستحثون بعضهم بعضاً بإشعال النار في السقيفة.. اتجهت إلى باب السقيفة وأرادت فتحه فلم يطاوعها.

نظرت من فتحة في الجدار، لم تر إلا النار تشتعل في هشيم القش عند أطراف السقيفة،

رجعت إلى الوراء وضحكت بفزع فلم يعد يعي قلبها الحدث. . .

فراغ المكان

نصوص وقصص قصيرة

معيض عبدالله

